مصر فى عين ابن بطوطة

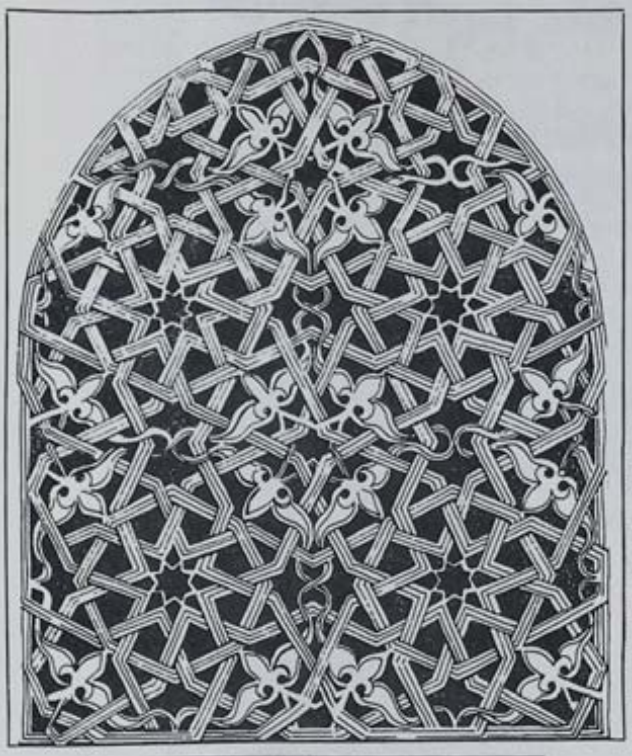

عبد العال الحمامصى

التنوير

يوما ما خلال القرن الثامن الهجرى – وبالتحديد يوم الخميس الثانى من شهر رجب عام ٧٢٥ الخامس من يونيو سنة ١٣٢٦ – انطلق من طنجة بالمغرب شاب فى الثانية والعشرين من عمره . . . تمكنت منه هواية غريبة ، هى أن يحمل عصاه على كاهله ويرتحل فى بلاد الله جوّابا للبلدان . . من قطر إلى قطر ومن بحر إلى نهر ومن صحراء إلى حاضرة . تسوقه هواية تواقة إلى اكتشاف المجهول . .

فلم يكن الرجل موفدا فى مهمة ولاسفيرا لدولة ولارسولا لأمير . . وماكان ينتظر وفدا من ملك أو خليفة من سلطان . . ولاكان مغامرا يسعى وراء كنز من كنوز الغابرين . . إنما هو التوق اللاهج إلى معرفة الناس واكتشاف سر كل الأشياء . . ليعطينا فى النهاية موسوعة ضافية متكاملة عن بلاد الاسلام بكل مافيه . . موسوعة قدمها بمفرده بعد رحلة استغرقت ربع قرن من الزمان . طاف فيها شرقا وغربا ، وحفلت بالمخاطر والأهوال . .

هذا الرجل الذى أنجز بمفرده تلك المهمة الجليلة – التى تحتاج الآن لو اردنا أن نقوم بمثلها إلى ثلال من الأموال وعدة مؤسسات ومعاهد ومجاميع وتخصصات – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى ، المعروف عالميا بابن بطوطة .

إن رحلة ابن بطوطة هى أشهر وأهم رحلة فى قلب العالم الإسلامى الممتد من جزيرة العرب حتى أغوار الصين . . صحيح أن ابن جبير الأندلسى قد سبق ابن بطوطة بنحو قرن من الزمان عندما قام برحلة إلى المشرق العربى والحجاز . . إلا أنها رحلة محدودة الزمان والمكان . . أما رحلة ابن بطوطة فهى الأولى من نوعها التى غطت كل ديار الإسلام جغرافيا وتاريخيا وبشرا وحيوانا وزرعا . . ولاتعادلها فى الأهمية رحلة ماركوبولو الذى كان صاحبنا معاصرا له بعض الوقت . . فقد عاش ماركو بين سنتى ١٢٥٤ و١٣٢٤ ، وعاش ابن بطوطة مابين سنتى ١٣٠٤ و١٣٧٨ ، وقد أقدم على رحلته بعد موت ماركوبولو بعام ونصف عام تقريبا . .

ولكن رحلة ماركو لقيت الاهتمام المتواصل . وعلى أساس كتابه عن الرحلة رسمت أوربا سياسة تعاملها مع آسيا والصين . . ولكننا كالعادة – لم نحاول أن نستفيد شيئا من كتاب ابن بطوطة . . وليس لدينا كما يؤكد الدكتور حسين مؤنس طبعة واحدة محققة تحقيقا وافيا لرحلاته . . ولقد صوب الدكتور وهو يقوم بالدراسة التى سأحدثك هنا عنها ، عشرات الأخطاء فى الطبعة البيروتية التى صدرت عام ١٩٦٨ . . ومع ذلك فهذه الطبعة هى احسن مالدينا . . ومن العجب – هكذا يقول الدكتور مؤنس – أن ناشرها لم تسمح نفسه بأن يطلب إلى واحد من أهل العلم أن يكتب لها مقدمة حرصا على المال . . لقيت رحلة ماركوبولو الاهتمام البالغ من لدن الأفراد والجامعات والدول . أما رحلة ابن بطوطة التى تفوقها أهمية فقد لقيت عندنا الإهمال الفادح . . وغبنت هنا . . رغم أن الدكتور حسين مؤنس عندما يقارن بينها لايجد ضميره العلمى غضاضة فى أن يقول : ولكن شتان مابين الاثنين فى الدقة وتفتح الذهن ويقظة القلب ودقة الكلام وصدقه . . ومأأكثر ماكذب ماركو بولو ! ومأأقل ما بالغ ابن بطوطة ! فانظر – هداك الله بعد ذلك كله إلى مقام الرجلين فى التاريخ المعتمد للحضارة العالمية .

تعال معى – ياعزيزى القارئ – نتابع رحلة فذة نرى من خلالها عالم الإسلام والعصر بأسره يتيح لنا هذه المتعة . ثمة كتاب رائع أصدرته دار المعارف مؤخرا من تأليف الدكتور حسين مؤنس بعنوان « ابن بطوطة ورحلاته – تحقيق ودراسة وتحليل » ولقد بذل الدكتور حسين مؤنس جهدا علميا بالغا فى تحقيق الرحلات التى قام بها ابن بطوطة ، ووضعها فى إطارها الجغرافى والتاريخى من بدايتها إلى نهايتها . ثم دراستها جملة واحدة لتأتينا فى النهاية – مع إضافة الدكتور – بمثابة تقرير شامل عن أحوال الأمة الإسلامية عربا وعجما خلال القرن الثامن الهجرى .

ولاأستطيع خلال جولتنا فى هذا الكتاب اسع الا أن أقدم لك مجرد لمحات لاتغنيك عن قراءة الكتاب والعودة إلى ابن بطوطة الرحلة والمصدر . .

خرج ابن بطوطة من طنجة حاملى الوفاض ليس عليه إلا مايرتديه وبضعة دنانير فى جيبه ، ليقوم برحلة ممتدة الطول شاسعة العرض استغرقت ربع قرن من الزمان . ومع ذلك فلم يشك يوما حاجة ولا أعرب عن ضائقة . فكيف استطاع أن ينجز المهمة الخطيرة ؟ . . يقول لنا الدكتور حسين مؤنس إن الأمة الإسلامية هى التى مولت رحلته الفريدة وقامت بالإنفاق عليها . . فعلى طول الرحلة وامتدادها كانت هناك الزوايا والمدارس ودور الضيافة التى يقيمها أهل الخير وأصحاب الخرف ورجال الطرق الصوفية . . لقد كانت الأمة الإسلامية وقتها مترابطة متماسكة لا أحد يشعر بالغربة فى أية دار من ديارها . .

يستخلص لنا الدكتور من هذه الحقيقة صورة بالغة الدلالة لوضع الأمة الإسلامية فى هذا العصر . . كان هناك عالمان . . عالم السياسة القبيح بحروبه ومكائده وجوره . . وهذا العالم من شأنه أن يجعل مهمة مثل رحلة ابن بطوطة عملية بالغة الصعوبة . . فالسفر فى تلك الأيام لم يكن متعة ولاراحة ولانزهة . . إنما مغامرة بكل مانعنيه الكلمة . . مغامرة بالنفس ذاتها . . وكانت الحكومات فى هذا العصر شديدة الوطأة على المسافرين . . ضرائب باهظة . . ومغارم شديدة . . مجانب الرشوة عند الدخول والخروج أو حتى اجتياز معابر الأنهار . ومع ذلك فلا ضمان للأمن والسلامة إنما يترك المسافر لمصيره . . ومأأكثر مالاقاه الرجل من مخاطر وأهوال . .

ولنتأمل أهون الأوضاع عندما اجتاز بن بطوطة نقطة الحدود بين مصر والشام – وكانت مصر والشام أيامها سلطنة واحدة – عند « قطيا » يقول : وفيها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث . ثم يردف بعد أن يصف أحوال النقطة ولايجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، أو أحد من مصر إلا ببراءة من الشام ، والبراءة – كما يفسرها الدكتور مؤنس – عبارة عن وثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب . والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام كانت مبالغ كبيرة . . ومع ذلك كانت تسمى زكاة !

بجانب عالم السياسة القبيح ونظم الحكم المتقاتلة والمتصارعة كان هناك الوجه المشرق . . عالم الأمة الإسلامية المتآخية التى وحدها الإسلام رغم تعدد الأجناس . . فهذا ابن بطوطة يقطع هذا العالم بأسره ابتداء من المغرب حتى أغوار بكين ، ولايجد إلا الكرم والضيافة والحفاوة ومشاعر الإخاء الوطيد . . ذلك أنه كان هناك تنظم بالغ الاحكام وضعته الأمة الإسلامية

شعوبا دون الدول . . هو نظام الزوايا والمدارس والربط التى كانت دور ضيافة ورعاية اجتماعية لابن السبيل الذى فرض له القرآن حقا معلوما فى أموال المسلمين !

صورة أخرى بالغة الدلالة يستخلصها لنا الدكتور حسين مؤنس من رحلة ابن بطوطة ثم يكثفها بالتحليل العلمى . . وتعطينا هذه الصورة طابع العصر وملامحه . . فعلى طول الرحلة نجده يسعى بتوق ووجد صوفى لاهب إلى لقاء أولياء الله والعارفين وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات . .

وكان أحيانا يتخلف عن ركب القافلة المسافر معها حتى لانفوته زيارة عابد أو زاهد . . فى كل بلد كان يلم به كان يسعى إلى هؤلاء . . ففى الإسكندرية يسعى إلى الشيخ أبو عبد الله القاسى الذى يصفه بأنه من كبار أولياء الله ، ويذكر عنه أنه كان يسمع رد السلام عليه عندما يسلم من صلاته . . أما الشيخ خليفة الإمام الورع الزاهد صاحب المكاشفات . . فيذكر ابن بطوطة أنه دخل عليه مرة فاندره الشيخ بقوله « أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، وأجابه ابن بطوطة بذلك » ولم يكن حينئذ يخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين » فقال له الشيخ : « لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » يقول أبن بطوطة : فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم .

وفى مدينة بنى مرشد فى الطريق الى دمشق يسعى إلى الشيخ الزاهد المعتزل عبد الله المرشدى الذى يصفه بأنه « المتفق من الكون » الذى يرزقه الله من عنده رأسا ، وما أكثر ما سمعنا من تعبير « يصرف من تحت السجادة » وصفا لبعض أقطاب الأولياء . . ومن طريف مايورده ابن بطوطة عن هذا الزاهد المنفق من الكون الذى كان « يقصده الوزراء والكبراء وعامة الناس فيشتهى كل منهم مايريد من الطعام فيأتيه به مهما كانوا . . بالطبع كان هذا كله من الكون » ثم يذكر ابن بطوطة أنه عندما بات فى زاوية الشيخ رأى فى الليل حلما ، فأكدت له كرامة الشيخ عندما كاشفه بتفاصيله وفسره له قبل أن يخبره به . . ثم نوطد بقينه بهذه الكرامة عندما كان بالهند وهو فى طريقه إلى الصين موفدا من قبل السلطان محمد تغلق بهدية إلى ملك الصين ، وكان السلطان « تغلق » يعتذر بهذه الهدية لملك الصين عن عدم إمكانه السماح ببناء معبد بوذى فى أرض إسلامية ، وكان ملك الصين قد استأذنه فى أن يعيد بناء معبد بوذى كان يحج إليه أهل الصين فى موضع يسمى « مهل » .

وتعرض ابن بطوطة فى الطريق لغارات اللصوص ، سلبوا مامعه واختطفوه ثم هرب ليقع فى أسر لصوص آخرين ، وعندما أطلقوا سراحه ، كاد يهلك من الجوع والعطش إلى أن رزقه الله رجلا صالحا أسود اللون حمله على كاهله ورعاه . . كان هذا الصوفى هو « دلشاد » الذى قال فى شأنه ولى الله عبد الله المرشدى قبل نحو عشرين سنة « ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى دلشاد وتخلصك من شدة تلح فيها » مامعنى هذا الاهتمام من جانب ابن بطوطة بالأولياء والزهاد جنبا إلى جنب مع جغرافية كل بلد يزوره وأوضاعه السياسية والاجتماعية وعاداته فى المأكل والملبس والعمارة ؟ . . يستخلص لنا الدكتور حسين مؤنس دلالة الظاهرة . . فهذا العصر كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات ومشايخ الطرق الصوفية بلا منازع ، فى كل مدينة نجد عددا من الأولياء يحتلون مراكز مرموقة وهم سلطان معترف به من قبل الناس بل من قبل السلطة الزمنية . . بل كان الناس يرون أن هؤلاء هم السلاطين قبل أصحاب السلطان . . ومازلنا فى مصر نجد مساجد هؤلاء الأولياء مثل مسجد السلطان الحنفى ومسجد السلطان أبى العلا . . ومازلنا نطلق على السيدة زينب رضى الله عنها لقب « رئيسة الديوان » .

إن الظاهرة – كما نخرج من تحليلات الدكتور مؤنس – كانت نتاجا طبيعيا للوضع القائم فى العالم الإسلامى منذ القرنين السادس والسابع الهجريين . . فقد تدهورت أوضاع الحكم ، وألمت بالأمة جائحة الصليبيات ، وتحول العدوان الصليبى فى الاندلس وبلاد الشام من غارات وغزوات إلى احتلال . . سقطت الأندلس وانتهت دولة الإسلام ، وقامت فى الشام كيانات نصرانية على أرض اسلامية . . ووقف السلاجقة أمام الهجمة موقف العاجز ، وهان شأن الخلافة العباسية حتى لم يعد لها أى وزن . . وهنا كان لابد أن تتحسس الأمة – التى يجرى الدين فى عروقها مجرى الدماء – الخلاص عن طريق أولياء الله . . تتشد لديهم كشف الغمة . . ولهذا تمت ظاهرة التصوف ، وتزايدت مكانة أولياء الله ، ومازال المثل يقول « إذا عجز الطبيب جاء الولى » !

قلت لك منذ البداية إننى لاأستطيع هنا أن أقدم عرضا يعطى صورة شاملة عن هذه الرحلة . . ولاعن الجهد الذى بذله الدكتور حسين مؤنس فى تحقيقها التحقيق العلمى الذى يتيح لنا مدخلا ميسورا إلى عالمها بغير صعوبة . . قلت لك هذا فالذى يعنينى هنا بعض دلالة جوانبها . . وتهمنى بالدرجة الأولى صورة مصر فى عين ابن بطوطة . .

ها قد وصل صاحبنا إلى الإسكندرية غداة الفاتح من جمادى الأولى عام ٧٢٦ هجرية وقد بدا مبهورا بالإسكندرية وهو يتحدث عن عظمتها وحضارتها وكونها عاصمة التجارة بين آسيا وأوربا ، ثم يصف سورها العظيم وأبوابها الأربعة التى نعرفها : باب سدرة وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر . . كما يصف عمود السوارى . . ولعل ابن بطوطة كان هو أول مصدر – كما يقول الدكتور مؤنس – يعطينا فكرة وان كانت تقريبية ، عن بداية تهدم منارة الإسكندرية التى هى إحدى عجائب الدنيا السبع . . فابن بطوطة يذكر أنه رأى المنارة وقد تهدم أحد جوانبها . . ولكنه عندما عاد إلى الإسكندرية بعد ذلك ، وقد مرت ثلاث وعشرون سنة نجده يقول إنه وجد الخراب قد أتى على المنارة تماما . . وكان الملك الناصر قد شرع فى بناء منار آخر . ولكن الموت لم يمهله !

ويحدثنا ابن بطوطة عن علماء الإسكندرية ورجال الصوفية فيها . . ومن طريف مايذكره عن قاضى الإسكندرية أبيهما عماد الدين الكندى ، عمامته الضخمة التى يصفها بأنها عرفت المعتاد عن العمائم « لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها . . رأيته يوما قاعدا فى صدر محرابه . . وقد كادت عمامته تملأ المحراب » .

وثمة واقعة يذكرها ابن بطوطة عن مشاجرة وقعت بين بعض تجار الافرنج وأهل الإسكندرية . فتحيز والى الإسكندرية للإفرنج وعاقب المشاجرين من أهل البلد . . فثارت ثائرة الناس . . وهنا بعث السلطان الناصر رسولا مخصوصا من القاهرة . . ولكنه تحيز هو الآخر للإفرنج . بل كان أشد قسوة من الوالى على أهل البلد . . إذ حبس كبار أهل الإسكندرية وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم . . وقطع كل رجل قطعتين وصلبهم صفين ، وكان ذلك يوم جمعة !

وعلينا أن نتوقف عند دلالة الواقعة . . فهى إذا كانت تؤكد حرص السلطة على حماية الأجانب من قديم . . فإنها تؤكد فى ذات الوقت أن بيت الشعر القائل :

«أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس ؟ »

كان له امتداده فى أغوار تاريخنا . . وأنه كان نتيجة استبطان تجارب تاريخية لامجرد تعبير عن واقع معاصر زمن قوله .

مصر . . أم البلاد .

وتعال نتوقف عند الصورة التى رسمها للقاهرة ، وهو يصفها بقوله ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد . . ذات الأقاليم العريضة . . والبلاد الأرضية . . المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة . . مجمع الوارد والصادر . . ومحط رحل الضعيف والقادر . . وبها ماشئت من عالم وجاهل . . وجاد وهازل . . وحليم وسفيه ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف . . ومنكر ومعروف . . وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها . . وشبابها يجد – بتجدد – على طول العهد . وكوكب تعدبلها لايبرح عن منزل السعد ، إنها القاهرة إذن دوما . . على مدى التاريخ هى القاهرة . . وأكاد أتصور وصفه لها يكاد ينطبق اليوم على حالها ، وهى تضيق بسكانها وتعانى من زيادة النسل . . هل كانت القاهرة تعانى ذات الأزمة على أيام ابن بطوطة ؟ . . مهما يكن فقد كان التفاؤل يحكم نظرة ابن بطوطة . . كما يحكم الآن نظرتنا إلى مستقبلها . . فشبابها يتجدد دوما . . وكوكبها لايبرح عن موقع السعد !

ثم يذكر ابن بطوطة وقائع تعبر عن شغف أهل مصر بالمرح والطرب ، ولكنه عندما يتعرض للجانب العلمى فيها نجده يقول « وأما المدارس فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها . . وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من الرفاق والأدوية مالا يحصر » ثم يذكر بعد ذلك أن « مجراه ألف دينار كل يوم » ! والعبارة الأخيرة تستوقف الدكتور حسين مؤنس ويجدها غير مفهومة . . لأن المعروف أن المارستان . . هو المستشفى لم يكن يغل مالا . . بل كان ينفق عليه المال فكيف يكون له مجرى ؟ فلعله يريد بذلك أن النفقة عليه ألف دينار فى اليوم . .

ولكنى أقول لماذا لايكون الأمر على غير ماقرر الدكتور ؟ لقد أشار ابن بطوطة إلى الأزمة السكانية فى القاهرة . . فلماذا لايكون التهافت على المارستان التماسا للدواء والعلاج . . قد دفع السلطة الحاكمة إلى فرض رسم معين على القادرين والأغنياء من هؤلاء ؟ !

وعندما يصف ابن بطوطة الزوايا المنتشرة فى القاهرة لطوائف الفقراء سيما الأعاجم من هؤلاء . . تتبدى لنا مصر القطرية . . وحنان قبلها على الغرباء . .

ثم يتحدث ابن بطوطة عمن عرف من علماء مصر الأجلاء ، ويذكر منهم جماعة يستوقف نظر الدكتور حسين مؤنس فيهم أنهم « كانوا من جميع نواحى بلاد الاسلام فمنهم : ركن الدين بن القوبع التونسى ، وأثير الدين أبو حيان الغرناطى ، وبرهان الدين الصفاقى ، وقوام الدين الكرمانى ، وبدر الدين عبد الله المنوفى . . وهذه الأسماء تدل بالفعل على أن مصر كانت قد تحولت إلى مركز العلم الإسلامى الأكبر ، وأن أهل العلم جميعا كانوا فيها سواء ، لافرقة بين مصرى وغير مصرى . وذلك هو الذى جعل لمصر وجامعها الأزهر ذلك الطابع العربى الإسلامى العام » .

والآن ياصديق القارئ لاأملك إلا هذا بقدر مااستطعت . . مجرد دعوة لقراءة ابن بطوطة . ثم هذا الكتاب الهام للدكتور حسين مؤنس الذى أصدرته دار المعارف مؤخرا دعوة لكتاب قراءته متعة وثقافة . . معرفة وطرافة .